

## الباب الثالث

### في المنابع التي استقى منها الغزالي

#### تمهيد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفكير في الإنسان وما يتعلق به، وأنه أول من قال: اعرف نفسك بنفسك. ولعلمهم يريدون أنه أول من بحث في الإنسان بحثاً منظماً من حيث واجبه نحو نفسه، ونحو شركائه في الاجتماع، على أن يكون ذلك علماً ذا قواعد وأصول.

أما البحث في أن بعض الأعمال شر، وبعضها خير، وشيء منها نافع، وشيء منها ضار، فهو قديم سبق سقراط بأجيال.

فالأمة العربية التي ورث الغزالي وورث أساتذته آدابها القديمة، كانت تقول الشعر والنثر في تهذيب الأخلاق، فمن الواضح أن قول بعض الإعراب في وصية ابنه «المنية ولا الدنية» فيه ضرب من التهذيب الفردي، وقول أحدهم في حض الجيش على صدق اللقاء «الطعن في النحور أكرم من الطعن في الظهر» فيه نوع من تقديم المحاررين؛ لأن الأخلاق لا تعرف موطناً بعينه، وإنما تتبع الرجل في كل حال.

وكذلك قول أكثم بن صيفي: «العقل راقد، والهوى يقظان، والشهوات مطلقة، والحزم معقول. والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل. أصبح عند رأس الأمر أحب إلي من أن أصبح عند ذنبه. لم يهلك من مالك ما وعظك. نفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب. التقدم قبل التندم. ويل لعالم أمر من جاهله. يتشابه

الأمر إذا أقبل، فإذا أدبر عرفه الكيس والأهق. في هذه الكلمات كثير من الآداب الاجتماعية، وهي جزء من علم الأخلاق.

ونجد شعراء الجاهلية والإسلام ضربوا بسهم في معرفة الطباع البشرية، فنرى في شعرهم شيئاً عن أثر الوراثة، وأثر الرفقة، وأثر الجوار، إلى غير ذلك من المعاني التي بسطها الفلاسفة حين تكلموا في الأخلاق. فقول ذي الأصبع العدواني:

كل امرئ صائر يوماً لشيمته \_\_\_\_\_  
وإن تخلق أخلاقاً إلى حين \_\_\_\_\_  
يماثل بعض المذاهب الأخلاقية.

وقول مسكين الدارمي:

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم \_\_\_\_\_  
على سر بعض غير أني جماعها \_\_\_\_\_  
لكل امرئ شعب من القلب فارغ \_\_\_\_\_  
وموضع نجوى لا يرام اطلاعها \_\_\_\_\_  
يظنون شتى في البلاد ومرهم \_\_\_\_\_  
إلى صخرة أعيان الرجال انصداعها \_\_\_\_\_

يماثل ما يضعه الفلاسفة في الآداب الفردية.

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق، لأن المدح في الغالب تصوير للفضائل، والذم تمثيل للردائل، ووصف الفضائل والردائل مما يعني به علم الأخلاق.

فقول قعنب بن ضمرة:

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً \_\_\_\_\_  
عني وما سمعوا من صالح دفنوا \_\_\_\_\_  
صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به \_\_\_\_\_  
وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا \_\_\_\_\_  
جهلاً علينا وجبناً عن عدوهم \_\_\_\_\_  
لبئست الخلتان الجهل والجبين \_\_\_\_\_

هذا هجاء، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التي يعني بحربها علم الأخلاق.

وقول حسان بن ثابت:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه \_\_\_\_\_ لا ببارك الله بعد العرض في المال  
أحتال للمال أن أودي فأجمعه \_\_\_\_\_ ولست للعرض أن أودي بمحتال

هذا فخر، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الإنسانية.

ولا تنس الحكم التي فاضت بها النفوس العربية، فأبي كلام أكرم وأمتع من قول وابصة الأسيدي:

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه \_\_\_\_\_ كأن به عن كل فاحشة وقرا  
سليم دواعي الصدر لا باسطا أذى \_\_\_\_\_ ولا مانعاً خيراً ولا قاتلاً هجرا  
إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً \_\_\_\_\_ أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حرا  
إذا ما أتت من صاحب لك زلة \_\_\_\_\_ فكمن أنت محتالاً لزلته عذرا  
غني النفس ما يكفيك من سد خلة \_\_\_\_\_ فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

والقرآن؟

في القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس، وخلجات القلوب، وفيه حل لأكثر المشاكل الأخلاقية التي شقي في حلها الحكماء، ففيه أدب الرجل مع ربه، ومع نفسه، ومع زوجه، ومع آباءه، ومع أبنائه، ومع إخوانه، ومع أصدقائه، ومع أعدائه، ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم يعن بحلها القرآن. وفي الحديث توضيح وتتميم لما في الكتاب العزيز، ويكفي أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول.

وبعد ما جاء في خطب العرب وشعرها، وما جاء في القرآن والحديث، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك، من أقدمها كليلة ودمنة، الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية، وقفاه بكتاييه الأدب الكبير والأدب الصغير، ووضعت أبواب مطولة في كتب الفقه عن آداب الزواج، ومعاملة الرقيق، ومعاملة المحاربين، وما إلى ذلك مما يهتم به الناس في الحرب والسلام، ويبنى عليه الاجتماع.

لم كانت المقامات والخطب المنبرية، التي أودعها الأدباء والمصلحون آراءهم في تهذيب النفوس، وتلطيف الطباع.

كل ما قدمته كان ينبوعاً صافياً ينهل منه الغزالي ويعمل وهو يضع مؤلفاته في الأخلاق، وقد تبينت أحكامه، فرأيته لا يضع حكماً إلا وقد اقتبسه من حكمة، أو مثل، أو بيت من الشعر، أو آية، أو حديث، أو أثر، إلى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله، ولكني رأيت في ذلك منافاة للإيجاز، وهو شرط هذا الكتاب.

على أن الغزالي مع ترسمه لما سبقه من الآثار الأدبية لم يخل من حرية الفكر، والميل إلى التجديد، فقد خرج على الأشعري في بعض آرائه، وخالف الشافعية في بعض ما يقولون به، ولكنه على كل حال يساير المتقدمين، ولا يخالفهم - حين يخالفهم - إلا برفق واحتياط، كما يفعل الحذر الهيب.

## الفصل الأول

### المصادر الفلسفية

درس الغزالي الفلسفة، ولكنه درسها بنية سيئة، درسها ليسبر غورها، ثم ينشر مساويها في العالمين!

وقد درسها بنفسه، ولم يتلمذ لأستاذ، فكان ذلك داعية لهذا البغض العميق، الذي جعله ينسى الفلاسفة، ولم يذكرهم إلا بسوء في كتبه الأخلاقية، ولو أنه تلقاها على أستاذ تلقى الفقه، والتصوف، والتوحيد، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد<sup>(١)</sup>.

ذلك بأن الأساتذة يتصرون لعلومهم، ويؤثرون في تلامذتهم أثرًا غير قليل، وأثر المتصوفة، من أساتذة الغزالي واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية.

ولكن هل نجا الغزالي من محاكاة الفلاسفة حين كتب في الأخلاق؟ وأن نظرة في تقسيم الفضائل، وطرائق كسبها، وتنويع الرذائل، ووسائل الخلاص منها، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا في الأخلاق، والآداب الاجتماعية.

وإنك لتضحك بملء فيك حين تراه يقول في كتابه «المنقذ من الضلال»: «وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمر الدنيوية السلطانية، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم الماثورة عن

(١) انظر ص ٩ و ١٠ من المنقذ من الضلال.

سلف الأولياء، وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها، وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله، وعلى مخالفة الأهواء؛ وسلوك الطريق إلى الله بالإعراض عن ملاذ الدنيا، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا به، فأخذة الفلاسفة ومزجوه بكلامهم، توسلاً بالتجمل به إلى ترويح باطلهم، ص ١٦.

وقد لحظ الغزالي أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل إذا وجهت إلى فلاسفة الإسلام، فقد قرءوا القرآن، وعرفوا منه أشياء من حكم الأنبياء والمرسلين، وقرءوا للصوفية كثيراً من الحكم والأمثال، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلاً إذا وجهت إلى فلاسفة اليونان، فانظر ماذا يقول في ذلك:

«ولقد كان في عصرهم، بل في كل عصر، جماعة من المتألهين لا يخلي الله تعالى العالم منهم، فإنهم أوتاد الأرض، ببركاتهم تنتزل الرحمة إلى أهل الأرض» ص ١٧.

فعل هذا لا فضل لسقراط، ولا أفلاطون، ولا أرسططاليس فيما وفقوا إليه، حين كتبوا في الأخلاق، وإنما الفضل لأولئك «الأوتاد» الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ آلاف السنين ولا أدري ماذا يفعل الغزالي إذا أقسم الأغارقة بالله جهد إيمانهم أنه لم يكن لهم إله واحد وإنما كان لهم ألف إله وإله، بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة، ويمهد للفسق السبيل!!

إنه لا شك في أن الغزالي استقى من منابع الفلسفية، في كل ما كتب عن الأخلاق، وغاية الأمر أن وجهة الدين، ووجهة التصوف، غلبتا عليه، وصورتا

آراءه بصورة دينية، روحية، تبدو للنظرة الأولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب، ولا تأخذ منها بنصيب، وهي في الواقع متأثرة بما للفلسفة من أصول.

وإنه لا حرج علينا في أن نقرر أن الغزالي أضلّ الفلسفة نار العقوق فقد كانت سبب حصافته، وذيوع صيته، ثم أطمع فيها العامة، ومكن الجهال من تصغير الحكماء، وليس تكفيره لابن سينا والفارابي بالأمر الهين، وإن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه التقاليد الممقوتة التي يعانيها المفكرون الأحرار، في جميع الأقطار الإسلامية، منذ حين!

### إخوان الصفا

جمعية شبه سرية. اجتمعت في البصرة في منتصف القرن الرابع. وإنما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة إذ ذاك. وكان غرض هذه الجمعية نشر المعارف التي يرونها صحيحة في جميع الأقطار الإسلامية، فقد كانوا يرون: «أن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية» وقد ألفوا إحدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لعهدهم — وقالوا في أول هذه الرسائل: «إن الحكماء الفلاسفة الذين كانوا قبل الإسلام تكلموا في علم النفس، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها، ونقلها من لغة إلى لغة من لم يكن قد فهم معانيها، حرفها وغيرها، حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها. ونحن قد أخذنا لب معانيها، وأقصى أغراضهم فيها، وأوردناها بأوجز ما يمكن من الألفاظ في إحدى وخمسين رسالة».

وقد تنسل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية، لما بين ما يجيء فيها أحياناً وبين تعاليم الباطنية من التطابق، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت على كثير من نسخ رسائل أخوان الصفا<sup>(١)</sup>.

وذكر الأستاذ الكونت دي جلاززا في محاضراته بالجامعة المصرية أن أحد إخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدي المتوفى نحو سنة ٣٨٩هـ كان يقول: «إن الشريعة لم تكن كاملة، بل فيها غلطات وجب إصلاحها بواسطة الفلسفة».

ورسائل إخوان الصفا تحتاج إلى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية، والدينية، والسياسية، ويكفي أن يعرف القارئ أن الغزالي اطلع على هذه الرسائل، واستفاد منها، وإن صب على أصحابها جام سخطه وغضبه؛ لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه لصاحبه، بل صرح الغزالي بأنه أقبل في أول حياته العلمية على درس ما عرف لعهد من المذاهب والآراء.

### الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان. وهو فارسي من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان، جاء إلى بغداد وأخذ علم المنطق عن أبي بشر متى بن يونس النصراني الذي توفي سنة ٣٢٨هـ ثم انتقل إلى مدينة حران وتعلم بها الفلسفة، وعاد بعد ذلك إلى بغداد، ثم رحل إلى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان.

قال سلطان (بك) محمد في محاضراته بالجامعة المصرية: «وهو في مقدمة الفلاسفة الإسلاميين الذين طالعوا كتب أفلاطون وأرسطو ووقفوا على أغراضها، وأحسنوا فهمها، يدل لذلك ما حكاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة،

<sup>(١)</sup> مبادئ الفلسفة ص ١٢٥.

ووقف على مقاصدها، واستظهر القسم الإلهي منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه، فسئمته نفسه. وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب، ويده مجلد، وقال له: اشتر هذا. فلما علم أنه في الفلسفة الإلهية، قال لا حاجة لي به. فقال له الدلال: إن صاحبه محتاج إلى بيعه، ويطلب به ثمنًا قليلاً. وأبيعه بثلاثة دراهم. قال: فأخذته ووجدته تأليف أبي نصر الفارابي، فلما قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه.

وكان معشوق الفارابي من فلاسفة اليونان أرسطو، حتى قيل: إنه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط الفارابي: «إني قرأت هذا الكتاب مائة مرة» ولكثرة شرحه لآراء الفلاسفة لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو بالمعلم الأول. وسئل: أنت أعلم أم أرسطو؟ فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه، وتوفي الفارابي رحمه الله سنة ٣٣٩هـ وهو يناهز الثمانين.

وللفارابي آثار كثيرة عدا عليها الغناء؛ ومن مؤلفاته الباقية «آراء أهل المدينة الفاضلة» وهو يحاكي فيه جمهورية أفلاطون.

وقد انتفع الغزالي بمؤلفاته، وإن حكم بكفره مجازفة وبلا دليل.

#### ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر فلاسفة المسلمين، توفي سنة ٤٢٨هـ وسته ٥٨ سنة. وكان من أمهر الأطباء وكتابه «القانون» كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين والغربيين. وقد عني العرب ببسط آرائه الفلسفية، وبشرح ما دون في الأخلاق، وطبائع النفوس.

ولا ريب في أن الغزالي انتفع بمصنفاته، وإن جتازاه جزاء سنمار حيث حكم بكفره، مجازاة للعامة، وطاعة للهوى. «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

### ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالي بأرائهم في الأخلاق ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١هـ. وهو من فلاسفة المسلمين وله عدة كتب في الأخلاق، أشهرها كتابه المسمى: «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق»، وهو يقع في ١٨٥ صفحة، ويقول في مقدمته: «غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بصناعة وترتيب تعليمي، والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي وأي شيء هي، ولأي شيء أوجدت فينا، وما قواها وملكانها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية... إلخ».

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفلسفة اليونانية بطريقة صريحة، لا لف فيها ولا مداورة، فهو من مجددتي فلسفة اليونان مع الحرص بقدر ما يمكن على موافقة الشريعة الإسلامية، وكتابه الذي نوهنا عنه له أثر كبير في تكوين الغزالي من الوجهة العقلية وقد همت بوضع مقارنة بين كتابه ذاك، وبين كتاب الإحياء، ثم رأيت أن هذا باب إذا أطلته طال، واستنفدت وقتاً أنا محتاج إليه في غيره من الأبواب فلاكتف ببعض فقرات نقلها الغزالي عن ابن مسكويه نقلاً يشبه أن يكون حرفياً، من غير أن ينوه بالكتاب الذي نقل عنه، وما أدري أكان ذلك مقصوداً أو غير مقصود، ولكنه على كل حال دليل على تأثر الغزالي بمؤلفات ابن مسكويه، وإلى القارئ البيان:

١- يقول ابن مسكويه: «ومن انخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الحساسات التي لا ثبات لها فهو حقيق بالمقت من خالقه عز وجل، خليق بتعجيل العقوبة، وراحة العباد والبلاد منه».

ويقول الغزالي: «ومن انفك عن هذه الجملة كلها، واتصف بأضدادها، استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد».

٢- يقول ابن مسكويه: «إنَّ أول ما ينبغي أن يتفرس في الطفل ويستدل به على عقله: الحياء، فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به يحذره ويتجنبه، فإذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحيًا مطرفًا بطرفه إلى الأرض، غير وقاح الوجه، ولا محقق إليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لا يجب أن تهمل ولا تترك».

ويقول الغزالي: «ومهما رأى فيه غخايل التمييز؛ فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهورًا أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء والصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه».

٣- يقول ابن مسكويه: «إن نفس الصبي ساذجة، لم تنتقش بعد بصورة، وليس لها رأي ولا عزيمة من تميلها من شيء إلى شيء».

ويقول الغزالي: «والطفل أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة».

٤- يقول ابن مسكويه: «ويعلم أن أولى الناس بالملابس الملونة والمنقوشة النساء اللواتي يتزين للرجال، ثم العبيد والخول، وإن الأحسن بأهل النبيل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك. ويسمعه من كل من يقرب منه، ويكرر ذلك عليه».

ويقول الغزالي: «ويجب إليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخثين، وأن الرجال يستنكفون منه، ويكرر ذلك عليه».

٥- يقول ابن مسكويه: «ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته، لا سيما من أتراه. ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره أو يلاعبه. وذلك أن الصبي في ابتداء نشوته يكون على الأكثر قبيح الأفعال. إما كلها وإما أكثرها. فإنه يكون كلوبًا. ويخبر ويحكي ما لم يسمعه ولم يره. ويكون حسودًا سرورًا نائمًا لجورًا ذا فضول».

ويقول الغزالي: «ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية؛ فإن الصبي مهما أهما خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذابًا حسودًا سرورًا نموًا لجورًا ذا فضول».

وبين العبارتين فرق صغير، وعبارة الغزالي أدق؛ لأنها تعلق فساد الطفل على إهمال تربيته وتأديبه.

٦- يقول ابن مسكويه: «ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالأدب. ويحذر النظر في الأشعار السخيفة وما فيها ذكر العشق وأهله، وما يوهم أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع. فإن هذا الباب مفسدة للأخلاق».

ويقول الغزالي: «ثم يشتغل في المكتب: فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار، وحكايات الأبرار، ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله، ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد».

ولئن قال قائل إن هذه آراء فطرية، لا تصلح مثالا للنقل والمحاكاة، فإني أجيبه بأن موافقة الغزالي لابن مسكويه في بعض الأبواب موافقة تكاد تكون تامة، تدل على الأقل على أنه صدى لمن قبله، وأن نصيبه من الإبداع قليل.

## الفصل الثاني

### منبع التصوف

وما زال الغزالي يكرع من مناهل الصوفية حتى روي؛ ثم اندفع يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح في كتاب الميزان، والأربعين، والإحياء، بحدبه على الصوفية، ورفقه بهم، وإشفاقه عليهم. بل أظهر تبعيته لهم، ونسبته إليهم، ثم أخذ يحن إليهم حنين الغريب إلى دياره!!

وانظر قوله في منهاج العابدين:

«وإن اللمة التي تظهر منا الآن ليست إلا بمن بقي على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحارث المحاسبي، ومحمد بن إدريس الشافعي، والمزني، وحرملة، وغيرهم من أئمة الدين رحمهم الله أجمعين. فهم كما قال القائل:

وما صحبوا الأيام إلا تعففاً \_\_\_\_\_ وما وجدوا من حب سيدهم بدا  
أفاضل صديقون أهل ولاية \_\_\_\_\_ إلى سيد السادات قد جعلوا القصد  
تحلل عقد الصبر من كل صابر \_\_\_\_\_ وما حلت الأيام من عقدهم عقدا

وكنا في الصدر الأول ملوكاً فصرنا سوقة، وكنا فرساناً فصرنا رجالاً، ولتينا لا نقطع عن الطريق. والله المستعان على المصائب، وهو المسئول أن لا يسلبنا هذا الرمق، إنه جواد كريم، منان رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» ص ٩٦ و٩٧.

فهل رأيت تحرقاً أمر من هذا وألذع؟

## أصل التصوف

وهذا التصوف الذي يترسم الغزالي آثار أصحابه ليس في جملته مما تدعو إليه الشريعة الإسلامية، وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية، وفارسية، ويونانية، نقلت إلى المسلمين، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم، فوسموها اسم الدين، ووضعوا لها على حسابه القواعد والأصول.

ويمكن الحكم بأن ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن، وحب الخير، وبغض الشر، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات، يرجع في جوهره إلى روح الإسلام، أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس، والتزهيد في الحياة، فهو بعيد عن روح الدين؛ لأن الإسلام دين فتح وسيطرة، وهو يعد معتنقيه؛ لأن يكونوا سادة، بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه أرواح العبيد.

## أنفاس الصوفية

وإنك لترى الغزالي يحاكي الصوفية في أنفاسهم وخطرات قلوبهم ويسايرهم خطوة خطوة في ذم الناس، وشكوى الزمان، وأظهر ما يكون هذا في ذم الأتقياء المزيفين، وسترى أنه في كتبه الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات:

ظفر الطالبون واتصل الوصل	_____	كل وفاز الأحباب بالأحباب
وبقيننا مذبلين حيارى	_____	بين الوصال والاجتناب
نرتجبي القرب بالبعاد وهذا	_____	نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم	_____	وتهندي إلى طريق الصواب
يا طيب السقام يا مرهم الجر	_____	ح ويا منقذي من الأوصاب
لست أدري بما أداوي سقامي	_____	ويا إذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج إلى قيد من الشريعة، ويسكت عنها لا يقيد بها بشيء. وأكثر ما أنكره عليه معاصروه لم يأت به إلا من جهة استسلامه للخطرات الوجدانية، التي علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف، حين اعتزل الناس في دمشق وبغداد.

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحًا، بل رموه بجهل التصوف، وسلوكه منه في ببداء يضل فيها التنسيم، حتى اضطر الزبيدي وغيره إلى أن يثبتوا أنه لم يزد على أن حاكمي ما في قوت القلوب والرسالة القشيرية من مختلف الآراء في طرائق السلوك.

### قوت القلوب

وأهم الكتب التي تأثر بها الغزالي من بين كتب الصوفية كتاب «قوت القلوب»، في معاملة المحبوب، تأليف أبي طالب المكي المتوفى سنة ست وثمانين وثلاثمائة ببغداد ولا يوجد الآن في الأسواق، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو في مجلدين، يقع الأول منهما في ٢٧٠ صفحة والثاني في ٢٩٧.

ويعد هذا الكتاب -بحق- مصدرًا لكتاب الإحياء ويكفي أن تقرأ باب التوكل مثلًا في الكتابين لتعرف أنهما يسيران في طريق واحد، إلى غاية واحدة، حتى لتجدهما يتفقان غالبًا في الشواهد من الآيات، والأحاديث، والأخبار. ويمكن الجزم بأن الغزالي أودع كتاب الإحياء كل ما صح لديه، وحسن عنده، من كتاب قوت القلوب، وإن لم يشر إلى ذلك، وربما ستر هذا بتغيير العناوين. فإذا قال أبو طالب المكي: «ذكر حكم المتوكل إذا كان ذا بيت» قال هو: «بيان آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم». وربما وضع عنوانًا لمسألة لم تُعنون في قوت القلوب، وقد يضع صاحب

القوت مسألة تحت عنوان، فيأتي الغزالي ويدمجها في كلامه، فيخيل إلى القارئ أنها له، ولولا خشية الإطالة لضربنا لذلك الأمثال.

وقد كان قوت القلوب وإحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام. وينقلون عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت يورثك النور. ولهذا القول وجه من الصواب، فإنك تجد الإسهاب والتفصيل في الإحياء، وتجد الدقة وروعة الإخلاص في القوت، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية، وبجمال لغته، بخلاف الإحياء، فإنه يغرب في التصوف، وحظ أسلوبه من الدقة قليل.

### الرسالة القشيرية

هي رسالة في التصوف لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى في ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥هـ. وهي تقع في ١٨٦ صفحة. ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ويسمى هذا الشرح: «أحكام الدلالة في شرح الرسالة».

وقد كتب القشيري رسالته هذه: «إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة» كما قال في المقدمة فهي إذا منشور عام لإصلاح المتصوفة في ذلك الحين، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التي نقلناها للغزالي من منهاج العابدين، فهو يقول: «اعلموا رحمة الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم \_\_\_\_\_ وأرى نساء الحي غير نساها

حصلت الفترة في هذه الطريقة، بل اندرست بالحقيقة ... إلخ».

وقد شرح القشيري في بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية في مسائل الأصول في التوحيد، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بإيجاز، ثم فسر الألفاظ التي تدور بين هذه الطائفة، وبين ما يشكل فيها على المريدين، كالوقت، والمقام، والحال، والقبض، والبسط، والتواجد، والوجد، والوجود، إلى آخر ما قال.

ثم وضع عدة أبواب في المجاهدة، والخلوة، والعزلة، والمراقبة، والصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، وما إلى ذلك مما يهم السالكين.

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ الطريق. وقد صدق الزبيدي فيما رآه من أن الغزالي اعتمد عليها عند تأليف الإحياء. وإن كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة، ومن السهل أن يثبت الإنسان أثر هذه الرسالة في أكثر أبواب الإحياء، وما أدري لم لم يشد الغزالي بذكر مؤلفها ومؤلف قوت القلوب، مع أن فضلها عليه كبيراً.

## الفصل الثالث

### من عرف الغزالي من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالي ونريد بذلك من قرأ لهم، واستشهد بكلامهم في مؤلفاته؛ لأن تأثيرهم غير قليل في تكييف أحكامه الأخلاقية، وطبعها بذلك الطابع الصوفي المعروف.

#### الإمام الشافعي

ولد رضي الله عنه بغزة، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد أن أقام بها أربع سنين. وكان سنة حين مات ٥٤ سنة. وليس غرضنا أن نتكلم عنه من الوجهة التشريعية، فإن لذلك مجالاً غير هذا المجال، غير أنه لا يفوتنا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب «الأم» الذي ينسب إليه ليس له، وإنما هو من تأليف البويطي كما نص الغزالي في الإحياء.

والذي يهمنا الآن: هو أن نصور الشافعي كما تصوره الغزالي، أي من الوجهة الصوفية، فقد كان رضي الله عنه معروفاً بالتقوى، ونسيان الذات، حتى يقول: «وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إليّ منه حرف».

#### نماذج من كلامه

وإلى القارئ نماذج من كلماته التي جرت مجرى الأمثال. قال رضي الله عنه: «أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه».

«المراء في العلم، يقسي القلب، ويورث الضنائن»، «من لم تعزه التقوى فلا عز له»، «سياسة الناس أشد من سياسة الدواب»، «لو علمت أن الماء البارد ينقص مروءتي ما شربته»، «ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته»، «من علامة الصادق في أخوة أخيه أن يقبل عله، ويسد خلله، ويغفر زلله»، «لا تشاور من ليس في بيته دقيق»، «لا تقصر في حق أخيك اعتمادًا على مروءته، ولا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك»، «من نم لك نم عليك»، «من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله».

### المزني

هو الإمام أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني. ولد سنة ١٧٥هـ، وتوفي سنة ٢٦٤هـ تلقى العلم عن الشافعي وصار من ناشري مذهبه. وكان الشافعي يقول فيه: «لو ناظر الشيطان لغلبه!! ونقل السبكي عن عمرو بن عثمان المكي: «ما رأيت أحدًا من المتعبدين في كثرة من لقيت منهم أشد اجتهادًا من المزني، ولا أدوم على العبادة منه، وما رأيت أحدًا أشد تعظيمًا للعلم وأهله منه، وكان من أشد الناس تضييقًا على نفسه في الورع، وأوسعهم في ذلك على الناس».

### حرملته

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦هـ، وتوفي سنة ٢٤٣هـ، وهو من تلامذة الشافعي ورواة حكمه. قال السبكي: «وقد ينفرد حرملة في بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلًا وتفريعًا، كما قد يفعل ذلك المزني وغيره في بعض الأحيان».

## المحاسبي

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣هـ، وهو شيخ الجنيد، ويقول: إنه سمي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه وقد ألف في الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتي كتاب. وكان الجنيد يقول: «كنت كثيرًا ما أقول للحارث: «عزلي أنسي» فيقول: كم تقول أنسي وعزلي؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنسًا، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا عني، ما استوحشت لبعدهم. وأنشد منشد بين يدي الحارث هذه الأبيات:

أنافي الغربية أبكي \_\_\_\_\_ ما بكت عين غريب  
لم أكن يوم خروجي \_\_\_\_\_ من بلادي بمصيب  
عجبًا لي ولتركي \_\_\_\_\_ وطنًا فيه حبيبي

فقام وتواجد وبكى حتى رحمة كل من حضره».

ومن كلامه: «خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم»، «حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب، وبسط الرحمة، وطيب الكلام»، «الظالم نادم وإن مدحه الناس والمظلوم سالم وإن ذمه الناس»، «القانع غني وإن جاع، والحريص فقير وإن ملك».

## الجنيد

هو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق، توفي سنة ٢٩٨هـ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل.

ومن كلامه: «إن الله يخلص إلى القلوب من بره، على حسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره. فانظر ماذا خالط قلبك»، «الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول

النار، «إذا رأيت الفقير فلا تبدأه بالعلم، وأبداه بالرفق، فإن العلم يوحشه، والرفق يؤنسه».

وفي كتب الغزالي عدد عظيم من الصوفية، يؤكد بكلامهم رأيه، وكان لأولئك الصوفية مصنفات معروفة، وكلمات ماثورة يتداولها الناس لعهدده، وأنه لا شك في انتفاعه بتلك الآثار. والرغبة في الإيجاز هي التي أروضتنا عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل.

## الفصل الرابع

### منبع الشريعة

وأهم المنابع التي استقى منها الغزالي هو منبع الشريعة، ممثلة في الآيات والأحاديث والأخبار. ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالي هي عين الأخلاق الإسلامية، وهذا رأي غير صواب، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من إكثاره في مؤلفاته من الآيات والأحاديث، وسترى كيف أخطئوا حين تقرأ ما فصلنا من آرائه في الأخلاق.

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالي بأرائهم في المعاملات. مع أنه احتاط في النقل عنهم، ولكن هذه الحيلة لا تزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف.

### الإنجيل

اطلع الغزالي على الإنجيل، واستفاد منه، واعتمد عليه ما شاء في مؤلفاته. وهذا طبيعي من رجل مسلم أو صاه دينه أن لا يفرق بين أحد من الأنبياء.

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر في هذا الموضوع؛ لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالي إلى مطالعته للإنجيل مع أن الغزالي لم يضل إلا حين تعلق بأهداب الآداب السلبية التي دعا إليها الإنجيل!!

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التي وضعها الإنجيل غير طبيعية، على معنى أنه لا يمكن أن يسكن إليها بطبيعة أحد من الناس. فالحكمة الإنجيلية التي تقول: من

ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر حكمة غير معقولة، لا يقرها عرف، ولا يدعو إليها قانون - والحكمة المسيحية التي تقول: من سخرك ميلاً فامش معه ميلين حكمة غير ممكنة القبول. ومن المستحيل أن تجد مسيحياً يدير لك خده الأيمن حين تضربه على خده الأيسر، أما المسيحي الذي يتبعك ميلين حين تسخره ميلاً فهو نادر الوجود!!

ومن المستطرف ما لاحظته الدكتور زويمر على ما رواه الغزالي عن المسيح من أنه مكث يناجي ربه ستين صباحاً لم يأكل. فقد قال: الحقيقة أنها أربعون. ولم تتعب نفسك يا سيدي الدكتور في هذا التصحيح؟ المسألة برمتها خيال في خيال، لأن الذي يمكث ستين يوماً أو أربعين يوماً بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد. وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يجيوا هذه الحياة! وهبهم استطاعوا فما عسى أن تكون منزلتهم بين الإحياء؟

وأى خطأ أفدح من قول الغزالي في الدرة الفاخرة: «اعتبروا بعيسى عليه السلام، فقد قيل: إنه لم يملك إلا ثوباً واحداً لبسه عشرين سنة؛ ولم يأخذ معه في كل سباحاته إلا كوزاً وسبحة ومشطاً. ورأى ذات يوم رجلاً يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانياً، ثم رأى رجلاً يمشط لحيته بأصابعه، فطرح المشط ولم يستعمله ثانياً، وكان يقول دائماً: حصاني قدماي، وبيوتي مغائر الأرض، وطعامي خضرتها، وشرابي من ماء أنهارها، ومقري بين بني آدم».

وهذه من الغزالي دعوة مردودة؛ لأن الإسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة، وكيف يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بما روي عن عيسى لم يملك إلا ثوباً واحداً لبسه عشرين سنة، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء

عشرين سنة، إلا أن تكون هذه أيضًا معجزة، وعفا الله عمن لا يفهم هذه المعجزات!!

إن عيسى الذي يصورونه بهذه الصورة شخص خرافي لم يعرفه التاريخ. وإلا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى، ولا يعرض لابسه لنفرة تلامذته وأصدقائه؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من أنه قال: «إذا كان صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته، وليمسح شفتيهن لئلا يرى الناس أنه صائم» فإن في هذا الحديث دعوة إلى كتمان الصوم، والظهور بمظهر الترف، تجنبًا للتمدح بمظهر الصيام.

أليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول: من أخذ رداءك فأعطه إزارك، ومن ذا الذي يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب؟!

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد، مع أن هذا مناقض للآية الكريمة: {رينا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار} (١). ويستشهد بقول عيسى: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يومًا بيوم، فإن قلتم نحن أكبر بطونًا فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق. وهذا يناقض الآية الكريمة: {ولا تنس نصيبك من الدنيا} (٢). ومن الواضح أن الذي لا ينسى نصيبه من دنياه، يسعى له، ويجد في طلبه.

(١) سورة البقرة: ٢٠١.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام، وإنما نرجح أن أتباعه جنوا على شريعته، بما زوروا باسمه من الأحاديث وهذه جناية كثيرة الأمثال في الشرائع، فإن الإسلام مع تواتر سنده الأول وهو القرآن، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوروا الأحاديث باسم النبي حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق، وروعة الجمال.

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو إلى الزهد، فإن الدعوة إلى الزهد أصل من أصولها الأولى. ولكننا نرجح أنها كانت تدعو إلى الزهد بقدر ما تفل من حدة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم فأما الدعوة إلى الفرار من طيبات ما أحل الله فهي دعوة بعيدة الوقوع من الأنبياء والمرسلين.

وكنا نحب أن لا يصدق الغزالي كل ما نقل عن المسيح، ولكن الغزالي كان طيب القلب أكثر مما يجب، وما أحوج العلماء إلى الاعتصام بحبل الشك، فإن الشك وحده سبيل اليقين.

## الفصل الخامس

### أساتذة الغزالي وأصحابه

وبعد الذي قدمناه من ورود الغزالي للمناهل الفلسفية، والشرعية، والصوفية: لا نجد بدءاً من التنبيه إلى أنه اغترف كذلك من المنهل ورده أساتذته وأصحابه. وقد لاحظنا أن الذين تتلمذ الغزالي لهم كانوا في الأغلب صوفية، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية.

فمن أساتذته الإمام أحمد بن محمد الرذاكاني، وكان من الفقهاء الصالحين، وقد تلقى عنه دروسه الأولى في طوس.

ومن أساتذته الإمام أبو نصر الإسماعيلي، وكان من الأمثلة النادرة في الورع والتقوى، وقد تلقى عنه الغزالي في جرجان، وعلق عنه التعليقة، كما كانوا يقولون.

ومن أساتذته أمام الحرمين، وكان من أتقى أهل زمانه، وقد تلقى عنه الغزالي في نيسابور، ويقال: إنه كان يحسد الغزالي، بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ.

ومن أساتذته الإمام الزاهد أبو علي الفارمذي من أعيان تلامذة أبي القاسم القشيري وكان أستاذه في التصوف وقد عده السبكي من أصحابه.

هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالي وأصحابه أثروا في حياته العقلية تأثيراً غير قليل، وطبعوا نظره إلى الحياة بطابع خاص، وفي مقدور القارئ أن يرجع إلى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا أخبارهم في طبقات الشافعية. أما تلامذة الغزالي فسنعود إليهم في غير هذا الباب.